كلمـة

معالي السيد أحمد أبو الغيط

أمين عام جامعة الدول العربية

أمام

كلية الدفاع الوطني بسلطنة عُمان

تحت عنوان "المتغيرات على الساحة العالمية: المخاطر والفرص للمنطقة العربية"

مسقط: 2024/10/7

السيد اللواء الركن بحري/ على بن عبد اللّه الشيدي

آمر كلية الدفاع الوطني بأكاديمية الدراسات الاستراتيجية والدفاعية

الحضور الكريم.

اسمحوا لي في البداية أن أعبر عن السعادة البالغة لوجودي بينكم اليوم.. في سلطنة عمان العزيزة وفي كلية الدفاع الوطني التي أحمل لها، ولأبنائها ومنتسبيها كل المودة والمحبة، فضلاً عن الاعجاب والتقدير.. لا سيما لما لسمتُه خلال السنوات الماضية من كفاءة هذه المؤسسة في ملاحقة كل جديد.. والانفتاح على ما يجري في العالم...إذ أعتقد أن هذه المرحلة بالذات تتطلب من المؤسسات العسكرية كافة تكوين فهمٍ عميق ومرِن للتطورات العالمية المتلاحقة والمتسارعة ... وقراءة تداعيات هذه التطورات بعمق، ورصد تأثيراتها على مجالات الأمن القومي في المستقبل.

وأعرف جيداً أن التطورات في منطقتنا ضاغطة علينا جميعاً... وتصيبنا بالقلق والانزعاج بعد عام كامل من الاعتداءات الإسرائيلية المتواصلة على فلسطين، والتي توسعت قبل أسابيع لتشمل تصعيداً خطيراً آخر في لبنان... مع عجز دولي واضح، بل ومؤسف ومخزٍ، عن إيقاف آلة الحرب.. وكأن الدماء العربية –وأتحدث هنا بصراحة– ليست لها قيمة كبيرة لدى العالم.

أقول رغم معرفتي بضغط هذه التطورات علينا جميعاً... إلا أنني اخترتُ، وكما اعتدتُ في هذه المحاضرة السنوية، أن أرصد الصورة الكبيرة، قبل أن اتناول الأحداث في الإقليم... وذلك عن اقتناعٍ راسخ بأن ما يهم في هذه المرحلة هو أن نرى الاتجاهات الكبيرة للأحداث، والخيط الذي يربط بينها.. وليس مجرد التفاعل معها، واحداً بعد الآخر.. وكأنها تجري من دون رابط مفهوم أو نمط يُمكن تبينه.

وأحصر حديثي اليوم في أربع نقاط رئيسية حول الحرب الباردة الجديدة، وبؤر الصراع في العالم، وأثر التكنولوجيا في شكل الحرب، وأخيراً.. عن التطورات في منطقتنا:

أولاً: الحرب الباردة الثانية:

أستطيع القول بأننا نعيش اليوم بالفعل حرباً باردة ثانية... فالتنافس بين القوى الكبرى الذي اشتعل خلال السنوات الماضي، دخل مرحلة جديدة.

من سمات هذه الحرب الباردة الثانية أنها تدور بين ثلاثة أقطاب وليس قطبين مثل الحرب الباردة الأولى التي دارت لنحو أربعة عقود كاملة بين قطبين رئيسيين هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

ومثلما كان الحال في الحرب الباردة الأولى، فإن الحرب الباردة الثانية تدور بين قوى نووية .. الولايات المتحدة والصين وروسيا.. وأغلب الاتفاقيات التي تم التوصل إليها للحد من السلاح النووي تآكلت... فضلاً عن أنها لا تشمل الصين التي تتابع برنامجاً متسارعاً لتضخيم ترسانتها النووية في هذه المرحلة.

وفي رأيي أن الحرب الباردة التي يخوضها الأقطاب الثلاثة اليوم أخطر بكثير من سابقتها... فالاتحاد السوفيتي كان عملاقاً عسكرياً، ولكنه كان ضعيفاً من الناحية الاقتصادية.. أما الصين فهي ثاني أكبر اقتصاد في العالم... وهي الشريك الأهم لأغلب الدول.. وهي مرتبطة اقتصادياً بالعالم كله، ومؤثرة في حركة الاقتصاد العالمي والتجارة الدولية، بل ولديها علاقات تجارية مهمة بالولايات المتحدة نفسها..

بما يجعل تكلفة هذه الحرب، في بعدها الاقتصادي، كبيرة للغاية لأطراف كثيرة وليس فقط لأقطابها.

ومنطق الحرب الباردة كما نعلم.. هو أن يحرص أطرافها على عدم خوض النزاع المباشر.. والعمل على خوض الصراعات بالوكلاء.. ونشاهد اليوم اختباراً حقيقياً، وخطيراً للغاية، لهذا المنطق في أوكرانيا... لثلاثة أعوام تقريباً تخوض روسيا حرباً غير مباشرة مع الناتو... الطرفان لا يريدان خسارة الحرب.. والناتو يصعد من تورطه في الصراع في كل مرحلة، عبر إمداد أوكرانيا بنوعيات أخطر من الأسلحة ... وأُذكِّر هنا بأن مجرد إمداد أوكرانيا بالدبابات كان محل جدل كبير في الناتو منذ عامين.. اليوم، يدور الجدل حول استخدام الصواريخ طويلة المدى (التي يوفرها الناتو) في ضرب مناطق داخل روسيا.. والكرملين يُهدد، مرة بعد مرة، باستخدام السلاح النووي للرد على هذه التهديدات.

بالنسبة لي.. هذه هي أخطر لحظة رأيت فيها العالم يقترب من الكارثة النووية منذ 1962.. أي وقت أزمة الصواريخ الكوبية.. ونتذكر أن هذه الأزمة جرى حلها بأعجوبة بسبب وجود خطوط مباشرة بين السوفييت والأمريكان... اليوم، هذه الخطوط تتآكل بين القوى الكبرى.. وقد ظل الاتصال مقطوعاً لفترة على المستوى العسكري بين الولايات

المتحدة والصين، حتى جرت استعادته مؤخراً... إنه وضع لا يمكن تصور مدى خطورته.

ثانياً: بؤر الصراع الأخطر:

ثمة ثلاث بؤر خطيرة للصراع العالمي الذي أراه يتشكل الآن في هيئة حرب باردة.

البؤرة الأولي هي المسرح الأوروبي، وبالتحديد شرق أوروبا حيث خطوط التماس بين روسيا والناتو... وقد تجسدت هذه البؤرة في الحرب الأوكرانية التي نتابعها... وهي حربٌ سمتها الأساسية غياب الحسم.

بعد ما يقرب من ثلاثة أعوام... فإن روسيا، وبرغم تفوقها الهائل في الحجم والاقتصاد (10 أضعاف الاقتصاد الأوكراني) والسكان (أربعة أضعاف سكان أوكرانيا) لا تستطيع حسم الصراع عسكرياً بشكل واضح... وأوكرانيا، مستعينة بالغرب والناتو، تحاول تعويض ضعفها، بعمليات نوعية مثل تهديد الأسطول الروسي الذي خسر نحو نصف قوته في البحر الأسود (برغم أن أوكرانيا لا تملك سلاحاً بحرياً تقريباً)... وبرغم ذلك، فإن استمرار حرب الاستنزاف على النحو الذي نتابعه يجعل الكفة تميل إلى روسيا حتى ولو ببطء.

البؤرة الثانية هي بحر الصين الجنوبي وتايوان... وهي بؤرة أخطر كثيراً... لأن طرفي الصراع فيها، الولايات المتحدة والصين، تعتبرانها حاسمة بالنسبة لوضعيتهما الاستراتيجية في العالم... الصين تريد استعادة تكامل ترابها الوطني، بالسيطرة على تايوان (مثلما فعلت مع هونج كونج).. والولايات المتحدة، تعتبر أن تهديد المضايق البحرية، هو تهديد لمبدأ حرية الملاحة... وهو جزء رئيسي من النظام العالمي الذي تحميه.. والذي منحها –منذ النصف الثاني من القرن العشرين– مكانتها المهيمنة في العالم.

المواجهة في هذه المنطقة منتظرة في السنوات القادمة... والتصعيد يحدث بالتدريج.. ونتائج المواجهة ستكون تبعاتها خطيرة على العالم كله... لأن هذه المنطقة صارت تمثل رئة مهمة للاقتصاد العالمي... ويكفي أن نشير –على سبيل المثال– إلى إن تايوان تقوم بتصنيع نحو 90% من الرقائق المتقدمة التي تدخل كافة تطبيقات التكنولوجيا الفائقة، من الهواتف النقالة إلى السيارات الحديثة.. إلى الذكاء الاصطناعي والحاسوب الكمي.

أما البؤرة الثالثة للصراعات.. فهي الشرق الأوسط... وسنأتي لها في آخر حديثنا.

ثالثاً: اتساع امتلاك أدوات القوة ومخاطر التكنولوجيا الجديدة:

الاتجاه الثالث الذي أرصده اليوم هو اتساع رقعة القوة على مساحة أكبر مما كان عليه الحال في السابق، وتزايد الإمكانية لدى أطراف أكثر لامتلاك أدواتها.

ما الذي أقصده بهذا؟

لم يعد بالإمكان احتكار التكنولوجيا المتقدمة من جانب دول محدودة... أو حجبها عن الأطراف الأخرى، خاصة في المجال العسكري.

التكنولوجيا في عصرنا الحالي لها خاصيتان واضحتان... الانتشار السريع وتناقص السعر.

إذا رصدنا مثلاً انتشار تكنولوجيا مثل الانترنت أو الهواتف النقالة... في سنوات معدودة لتشمل المعمورة كلها تقريباً... مع تناقص حاد في الأسعار... يمكن أن نتصور ما قد يحدث مع تكنولوجيا تتطور بسرعة فائقة أيضاً مثل الذكاء الاصطناعي.

تطبيقات الذكاء الاصطناعي كثيرة... وأغلبها نافعٌ للبشر، ويمكن تسخيره لتحسين الحياة وزيادة جودتها بشكل لافت.

على أنني أركز هنا على الأبعاد الاستراتيجية لهذه التكنولوجيا.. وخاصة في المجال العسكري.

لقد تابعنا مثلاً ... الاستخدام الفعّال لتكنولوجيا تطورت في وقت سريع جداً... هي تكنولوجيا المُسيرات... هي التكنولوجيا، تناقص سعرها بشدة، وأظهر استخدامها نتائج فعالة في ميادين عسكرية كثيرة.. وبعض استخداماتها واضح في منطقتنا ... مثل الهجمات التي تشنها جماعة الحوثي في البحر الأحمر.. وهي تكنولوجيا تُعطي المهاجم ميزة كبيرة ... خاصة وأن تكلفتها محدودة، مقارنة بتكلفة مواجهتها.

لنا أن نتصور، على سبيل المثال، أن تكلفة الضربات الصاروخية وبالمسيرات التي قامت بها إيران على الأراضي الإسرائيلية في أبريل الماضي لم تتعد عشرة ملايين دولار.. أما تكلفة اعتراض هذه المقذوفات، فوصلت إلى 2 مليار دولار.

وفي عبارة مختصرة.. أقول إن هذه التكنولوجيات الجديدة سوف تغير الكثير من شكل الحروب القادمة... وستضع قوة ليست هينة في يد دول متوسطة وصغيرة.. بل وجماعات، وربما أفراد.

وفي الآونة الأخيرة سمعنا تحذيرات كثيرة من مخاطر تطبيقات الذكاء الاصطناعي المنفلت على البشرية... ولا أظن أن هذه المخاطر

يُمكن وقفها بسهولة لسبب بسيط.. أن القوى الكبرى لن تستطيع مقاومة إغراء تطوير هذه النُظم تحت ضغط المنافسة الشديدة فيما بينها... خاصة في مجال التطبيقات العسكرية.

وأظن أن متابعة التطورات في هذه التكنولوجيات بالذات.. ورصد تأثيراتها في المسارح العسكرية المختلفة.. يُعد ضرورة واجبة على المؤسسات العسكرية في منطقتنا... لأن هذه التكنولوجيات ستغير من شكل الحرب في المستقبل... نعم، ستظل هناك ملامح ثابتة للمواجهات العسكرية.. وقد رأينا أن الحرب الروسية الأوكرانية أقرب في بعض مظاهرها إلى الحرب العالمية الأولى.. إلا أن دخول تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي بالذات إلى المجال العسكري، سوف يُغير شكل الحروب، وإن لم يغير طبيعتها.

رابعاً: التداعيات المحتملة على المنطقة العربية، وكيف نتحرك:

الصورة التي وصفتها فيما سبق من صراعات القوى الكبرى ومخاطر التكنولوجيا ودورها في تغيير صورة الحروب تدفع إلى القلق والانزعاج الشديد فيما يتعلق بمستقبل منطقتنا.

وأول أسباب القلق، في رأيي، هو ما كشفت عنه تطورات الأسابيع الأخيرة بالذات من وجود طرف في منطقتنا – هو إسرائيل– لديه تمكن كبير من تطوير وتسخير هذه التكنولوجيا المتقدمة في خوض الصراعات... وطالما أصر هذا الطرف على استمرار احتلال الأرض الفلسطينية والإمعان في قتل الفلسطينيين لتحقيق استدامة هذا الاحتلال، فإن قدراته العسكرية لابد أن تثير القلق الشديد لدينا... بل ونحتاج، في الدول العربية، الإبقاء على اليقظة الكاملة إزاء هذه القدرات ومخاطرها المحتملة... علينا جميعاً.

وأقول هنا إن إسرائيل لديها أوهام بإمكانية إقامة علاقات طبيعية مع الدول العربية، مع استمرار الاحتلال، وعلى أساس من القوة العسكرية والتكنولوجية وحدها.. وهذا وهمٌ كامل، لأن الدول العربية لا مصلحة لها في سلام مع طرف يريد فرض الهيمنة بالقوة.. ولدى قادته أضغاث أحلام بإقامة إسرائيل الكبرى وتحقيق نبوءات العهد القديم.

ولا يخفى علينا أن دولة الاحتلال ما استطاعت اقتراف المقتلة المشينة في غزة، لعامٍ كامل لم يتوقف فيه القتل العشوائي الانتقامي يوماً واحداً...وما كانت لتتمكن من ممارسة العربدة التي نتابع وقائعها المؤسفة في المنطقة... من دون مظلة حماية من الغرب.. ومن القوة القائدة...أي الولايات المتحدة الأمريكية.

إن بؤر الصراع الكبرى، التي تحدثت عنها آنفاً، تشغل الغرب أكثر من بؤرة الشرق الأوسط اليوم... وقد نجح الاحتلال الإسرائيلي في استغلال الوضع الداخلي في أمريكا، وهي مقبلة على عملية انتخابية هي الأشد استقطاباً في تاريخها... لكي ينفذ جرائمه، ويُفلت من أي حساب.

غير أن ممارسة القوة على هذا النحو الأرعن لا تضمن وضعاً نهائياً، يسوده السلم أو الأمن... ومن الواضح أن إسرائيل ليس لديها ما يُسمى بـ **End Game**.. أي حل نهائي للصراع مع الفلسطينيين.. والصيغة التي تقدمها هي استمرار الوضع القائم، أي الاحتلال، بصورة تُجسد نظام التفرقة العنصرية الذي عرفته جنوب افريقيا في السابق... وهو ما يفرض علينا، في الجانب العربي، متابعة النضال في مواجهة هذا الواقع بنفس الأدوات التي استخدمها الشعب المقهور في جنوب افريقيا.. أي حشد الرأي العام العالمي... واستخدام سلاح المقاطعة والعقوبات.. واللجوء إلى الفعاليات القانونية والقضائية.. والتحرك بقوة على كافة الساحات الدبلوماسية لحصار الاحتلال، وعزله، وزيادة تكلفته على الدولة التي تمارسه... وتقديري أن قادة الاحتلال الإسرائيلي يعرفون جيداً مخاطر خسارتهم للشرعية في العالم...خاصة لدى الأجيال الجديدة التي ظهر جيداً الفجوة بينها وبين الأجيال الأقدم في رؤية واقع الاحتلال، ورفض بشاعته وقبحه.. وهذه الأجيال، التي

رأينا أبناءها يتظاهرون لصالح فلسطين، ستتبوأ عما قريب مراكز صنع القرار في دول مهمة ومؤثرة.

وأختم بالقول .. بأن الواقع الدولي الذي وصفته ... يحتم على الدول العربية الاحتفاظ بأكبر قدر مما يُسمى بـ"المرونة الاستراتيجية"...أو "الاستقلالية الاستراتيجية".

إن الصراعات بين القوى الكبرى كما تجلب مخاطر، توفر بعض الفرص .. والهوامش للمناورة والحركة.

وتقديري أن القوى المتوسطة لديها مجال أكبر للحركة دفاعاً عن مصالحها في عالمٍ تتصارع أقطابه على هذا النحو.

لقد أثبتت تجربة العام المنصرم أن العالم العربي عليه مواجهة تحدياته بالاعتماد على الذات، وبالتحرك مع الأصدقاء والشركاء في العالم.. من أي مكان كانوا.. طالما توافقت المصالح والرؤى في ملف بعينه أو قضية بذاتها... فالعالم القادم كما أراه ليست فيها تحالفات جامدة أو صداقات مستمرة... وإنما ائتلافات سائلة ومتداخلة ومعقدة.. تتكون حول قضايا بعينها بين عدد من الأطراف متشابهة التفكير ومتوافقة المصلحة... وعلينا في العالم العربي –كما أتصور– أن نتحرك في العالم وفق هذه الرؤية المرنة.. حفاظاً على استقلاليتنا الاستراتيجية ومساحة المناورة لدينا.

وفي المحصلة.. فإن حركة دولنا العربية على الساحة العالمية، بكل مخاطرها، على نحو فردي ... تضعف تأثيرها وتُحدد فاعليتها.. أما تفاوضنا مع القوى العالمية ككتلة واحدة، في ملفات بعينها، فإنه يمنحنا وزناً أكبر وهامشاً أوسع للحركة، خاصة وأن الأوراق التي في يدنا –كعرب– ليست قليلة أو هينة.

إن المستقبل يستدعي اليقظة كل اليقظة.. لأن التحولات التي نشهدها اليوم، تتسارع وتتشابك ... لتُنتج واقعاً جديداً لابد أن نكون جاهزين له.. مستعدين لمقتضياته وقواعده.

شكراً لكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته